بواعث التجربة الشعرية عند أبي القاسم الشابيّ:

خلق شخصية الشابي العجيبة عوامل واضحة المعالم في حياته وفي أحواله النفسية ثم بعث التجربة الشعرية في اتجاهه الفكري وفي شعره.

(أ) حال بلده تونس، في البؤس الاجتماعي والتخلف الثقافي، والضعف السياسي، مما خلفه الاستعمار الفرنسيّ فلم يكن بإمكان الشابيّ إلا أن يتأثر بحال تونس في التعس والفقر والظلم. ولقد أنصف الشابي بلده في شعره فلم يكتفِ بأن يصفه وصف ناقمٍ أو راحمٍ فقط، بل كان يحثُّ قومه على الرقيّ يمنيهم بالنتائج التي يمكن أن يصلوا إليها إذا هم استيقضوا ونهضوا. غير أنَّه أيضاً كان في بعض شعره السياسي متشائماً ويظهر هذا واضحاً في قصيدته "النبيُّ المجهول" التي يقول فيها : [١]

---

[١] ديوان ٧٢ ص ٢٤٦ .

أيُّهَا الشَّعبُ ليتـني كُـنـتُ حَطَّـــا
باً فـأهـوِي عـلى الجُذُوعِ بِفــأْسِـي
أنـتَ روحٌ غـبـيـةٌ تـكــرهُ الـنُّــورَ
وَتَقْضِي الدُّهُـــورَ في ليلٍ مَــلْــسِ
إنَّــنـي ذَاهِـبٌ إلى الغَـابِ يَا شَـعْـ
ـبِي لأقضِي الحيـاةَ وحْـدِي بِبَأْسِي
ثُمَّ أنساكَ - ما استطعتُ - فما أنْ
تَ بــأهـــلٍ لـخَمْـرَتِي ولِكَـأْسِـي!

وكذلك في قصيدته :**أحلام شاعر"** حيث يقول :[١]
ليتَ لي أنْ أعيـشَ في هذهِ الدُّنيـــا
سَعِيــداً بِـوحـدتـي وانـفرَادِي

[١] ديوان ٧٢ ص ٢٨٥ .

لا أُعنّي نفسي بأحلامِ شَعْبي

فَهْوَ حيٌّ يعيشُ عيشةَ الجَمَادِ

أينَ هُوَ مِنء خَريرِ ساقيةِ الوادِي

وَخفقِ الصَّدَى وَشَدْوِ الشَّادِي

فكانت صوت تونس في أنينها وندائها وفخرها فهو شاعرها بلا منازع، ولقد شهد الشابي في أثناء حياته القصيرة فترة من تاريخ الشعب التونسي كانت المشكلة الجوهرية في أثنائها قضية بقاء هذا الشعب أو انقراضه .

وكان الشابي يعمل على بناء حياة جديدة في صورها المتعددة، الأدبية منها والاجتماعية، فلم تطق الرجعية المضي معه في هذا التمرد الخالق، ولم ترضَ لنفسها التخلي عن كسلها القاتل فسعت إلى محاربته وهاجمته الصحافة حيث اتهمته بالدعوة إلى (أدب الأغراب ومحاربة أدب الأعراب).

ولقى مناوأة [١] في بيئته لأن "العاطفة قد أفسدت عليه حياته وأصابته بدائه القتال الذي حطمه وأودى به وهو في نضارة الشباب كما أفسدت كثيراً من أحكامه، حين أوهمته بأنه ليس من طينة الناس" [٢]

---

١ مناوأة : مشقة .

٢ الشابي وجبران ص ٤٤ .

(ب) مرضه :

وعن مرضه نشأ تشاؤمه والسوداوية عنده وشدّة انفعاله حيناً بعد حين فقد كان لمرض الشابي تأثيرات متنوعة متعدّدة وانعكست على نفسية الشابي وأدبه الجميل، حتى إنَّ عدداً من قصائده كانت ملامح صادقة لمرضه .

مُنِيَ الشابي بمرضٍ لا يرجى منه شفاء فلم يستطع الثورة على حاله الطبيعية المرضية كما ثار على حاله النفسية والاجتماعية، إنَّه كان يظن أنَّ كل شيء في العالم يمكن أن يتبدَّل إذا شاءت الإرادة الفردية أو الشعبية أن تبدله .

ولكنه لما اصطدم بحقائق الحياة الطبيعية قيَّده المرض أدرك أنَّ هذه الإرادة عاجزة عن تبديل ما قد جرى به الزمن الأوَّل فعاد يطمئن نفسه بصحة القدر .

إنَّ في الأبيات التالية إذعاناً للقضاء والقدر ورضاً بما جرى به القلم الأزلي، يقول في قصيدته **"نشيدُ الأسى"** : [١]

مَـالي تُـعَـذِّبُـنـي الحَـيَـاةُ كَـأَنَّـنِـي خَـلْـقٌ غـرِيب؟
وإِذَا سـأَلتُ : لِـمَ الوُجُودُ؟ وَكُـلُّـهُ هَـمٌّ مُـذِيـب
قالتْ : نـواميـسُ السَّمَـاءِ قَضَتْ ومَالَكَ مِـنْ هُـروب !

وإذا كان الشابي أحيانا يحاول أن يتمرد على نتائج القضاء والقدر فإنه مقتنع بأن هذه النتائج مردها إلى أمر كان قد أقره القضاء نفسه .

---

[١] ديوان ٧٢ ص ٢٠٨ .

يقول في قصيدة **"نشيد الجبار"** : [١]

سَـــأعيـشُ رَغْـــمَ الـدَّاءِ والأَعْــدَاءِ
كَالنِّسْـــرِ فَـــوْقَ القِمَّـــةِ الشَّمَّـــاءِ
وَأَقُـــولُ لِلْـقَـــدَرِ الَّذِي لا يـنـثـنِـي
عَنْ حربِ آمَـــالِي بـكُـلِّ بَـــلَاءِ:
"لا يطفئُ اللهـبَ المؤجَّجَ في دَمِي
مــوجُ الأسَى، وعواصـفُ الأَرْزَاءِ"

وبعد هذا الكفاح الظاهر يعود الشابي فيستسلم للقضاء والقدر، إذ لا يجد بداً من الاستسلام مادام كل شيء يجري هذا المجرى المكتوب .

إنَّ استسلام الشابي للقضاء والقدر لم يطلع الشابي على سرهما ولا حل له لغز الحياة بل ألقاه في الحيرة ودلاه في اليأس .

---

١ ديوان ٧٢ ص ٤٤٠ .

يقول في قصيدة : [١]

أرَى هيكلَ الأيَّامِ يَعْـلُو مشيَّـــدا
ولابدَّ أَنْ يأتي عَلَى رَأْسِهِ الهَدمُ
فيصبحُ ما قــدْ شيَّـــد اللهُ لِلْـوَرَى
خراباً كأنَّ الكُلَّ في أَمْسِـه وَهْمُ
لِتَعْسِ الوَرَى شاءَ الإلهُ وُجُودَهُـمْ
فكانَ لهمْ جَهْلٌ وَكَــانَ لَهُـمْ فَهْمُ

ولَّما أفاق الشابي من النوبة الشديدة التي انتابته عام ١٩٣٠ ف، نظم قصيدته **"إلى الله"** [٢] فشطح فيها شطحة يقول فيها :

خَبِّرُوني هَلْ للوَرَى مِنْ إلهٍ رَاحمٍ - مثل زعمهم - أوَّاهُ !
إنَّنِي لَمْ أَجِدْهُفي هَاتِهِ الدُّنْيـا فَهَلْ خلفَ أُفْقِهَــا مــن إلـهِ ؟

---

[١] لم يضع الديوان عنوان لهذه المقطوعة - ديوان ٧٢ ص ٢٩٢ .
[٢] ديوان ٧٢ ص ١٠١ .

ويدرك الشابي المزلق الخطر الذي وضع قدمه عليه، قبل أن يرتد نفسه عن البيت الثاني فيقول بعده مباشرة :

مَا الَّذِي قَدْ أَتيتَ يا قَلْبيَ البَاكِي

وَمَـاذَا قَـدْ قُلْتِـهِ يَـا شِفَاهِي ؟

يَا إلهِي قدْ أنطــقَ الهــمُّ قَلْبِـــي

بِالَّـذِي كَـانَ فـاغتفرْ يَا إلهِي !

(ج) حالته المادية وموت أبيه :

وعنها نشأ ضغط أعباء الحياة وتكاليفها عليه فحرمه كثيرا من الحرية التي كان يجب عليه أن يتمتع بها، حيث كان موت والده قد ألقى على كاهله من الأعباء المادية فكانت وفاة والده خسارة مادية وكانت رزية أدبية هزت من نفس شاعرنا بل كانت أعظم رجة أصيب بها قلبه وأكبر مصاب نزل به في حياته فألقيت عليه أعباء عائلة كبيرة ولقد زاد في ثقل هذا العبء أن أبا القاسم "لم يشأ أن يلج باب الإرتزاق من المناصب الحكومية" . [١]

ومع ذلك كله فقد استطاع أبوالقاسم الشابي أن يتمَّ دراسته في كلية الحقوق التونسية وأن ينال إجازتها في سنة ١٩٣٠م

---

١ ديوان ٧٢ ص ٥٦١ .

ومر زمن كان الشابي فيه تاعسا مثقلا بأعباء الحياة، يظهر ذلك في قصيدته **"يا موت"** التي رثى بها أباه، يقول فيها : [١]

يا موتُ قد مزَّقتَ صَدْرِي وَقَصَمْتَ بالأَرْزَاءِ ظَهْرِي
وَفَجَعْتَنِي فِي مَنْ أُحِبُّ وَمَنْ إليهِ أبثُّ سِرِّي
وَرَزَأْتَنِي فِي عُمْدَتِي وَمَشُورَتِي فِي كُلِّ أَمْرِ
وَهَدَمْتَ صَرْحاً لا أَلُوذُ بغيرِهِ وهتكتَ سِتْرِي
وفَقَدْتُ كَفاً في الحَيَاةِ تَصُدُّ عَنِّي كلَّ سرِّ
وفَقَدْتُ رُكْناً فِي الحَيَاةِ وِرايتِي وَعِمَادِ قَصْرِي

ويعود الشابي في قصيدته **"قيود الأحلام"** [٢] فيكشف لنا عن حقيقة هذه الأحوال التي تعذبه في الحياة فإذا هي القيام بأعباء الأسرة التي خلفها أبوه فيقول:

لكنَّنِي لَا أستطيعُ فإنَّ لِي أُمّاً يَصُدُّ حَنانُها أَوْهَامِي

---

[١] ديوان ٧٢ ص ٢٣٤ .

[٢] ديوان ٧٢ ص ٢٨٨ .

وَصِغَارَ إخوانٍ يـرونَ سـلامَهُم فِي الكائِناتِ معلقـاً بِسَـلَامِي
فَقَدُوا الأبَ الحَـانِي فكنتُ لضَعْفِهِمْ كَهْفـاً يصـدُّ غَوَائِـلَ الأيَّـامِ
وَيَقِيهـمُ وَهْجَ الحَيـاةِ ولَفْحَهَـا وَيَـذُودُ عَنْـهُـم شـرَّةَ الآلَامِ
فَأَنَـا الْمُكَبَّـلُ في سَلَاسِـلِ حَيَّـةٍ ضَحَّيْتُ مِنْ رَأْفِي بِهَـا أَحْلَامِي

ولكنَّ أبا القاسم الشابي سرعان ما ينسى ذلك كله، لأنَّ الحاجة رفعت عن ظهره سوط عذابها فصلحت حاله مادياً . ثمَّ إنَّ شيئاً من التحسن العارض طرأ على صحته فأحس بفيض الحياة في جسمه فنسى كثيراً من آلامه وجميع أحزانه، فإذا في ديوانه مقطوعة عنوانها "الاعتراف" [١] يقول فيها :

مَا كُنتُ أحسبُ بعـد موتِـكَ يَـا أَبِـي
وَمشَـاعِـرِي عَمْيَـاءُ بالأَحْـزَانِ
إِنِّي سأظمـأُ للْحَيَـاةِ وَأَحْتَسِـي
مِنْ نَهْـرِهَا المتـوهِّـجِ النَّشْـوَانِ

---

[١] ديوان ٧٢ ص ٤٥١ .

وَأَعُودُ للدُّنْيـــا بقـــلبٍ خَـــافِـــقٍ
لِلْحُـبِّ والأَفْـــرَاحِ وَالأَلْـحَـــانِ
ولكـلِّ مَـا فِـي الكَـوْنِ مِـنْ صُـوَرِ المُنَـى
وَغَـــرَائِبِ الأَهْـــوَاءِ وَالأَشْجَـــانِ
حَتَّى تَحَـرَّكَـــتِ السُّنُـونُ وأَقْبَـلَـتْ
فِتَـــنُ الحَيَـــاةِ بِسِحْـرِهَا الفَتَّـــانِ
فَإِذَا أَنَـــا مَـازِلْـتُ طِفْـلاً مُولَعـــاً
بِتَـعَـقُّـبِ الأَضْـــوَاءِ وّالأَلْـــــوانِ
وَإِذَا التَّشِـاؤُمُ بالحَيَـــاةِ ورَفْضِـهَـا
ضَرْبٌ مِنَ البُـهْـتَـــانِ وَالهَـذَيَـــانِ
إنَّ ابـنَ آدمَ فِـي قَـــرَارَةِ نَـفْـسِـــهِ
عَبْدُ الْحَيَـــاةِ الصَّـــادِقِ الإيمَـــانِ

(د) مطالعاته :

وهي التي طبَّعت نفسه وشعره بعناصر من الخيال والانفلات والنقمة ، ثمَّ أدخلت على شعره شيئاً من الجدَّة والطرافة ، فقد تركت في نفس الشابي وعلى شعره أثراً عميقاً باقياً .

وكانت مطالعاته في النتاج الأدبي الحديث وفي الأدب المهجري ، وفي أدب جبران منه خاصة .

"وينعقد الإجماع على أنَّ الشابي كان تلميذاً للمدرسة المهجرية. والطابع الذي تركته هذه المدرسة في أدب الشابي لا سبيل إلى إنكاره وإغفاله وتجاهله" [١]

والتليسي في كتابه **"الشابي وجبران"** يقول :

" بأن أغلب الدراسات تتفق على تأثير جبران في الشابي ولكنها تقف صامتة عند تحديد مدى هذا التأثير" .

---

[١] الشابي وجبران ص ٤٩ .

ويعقد التليسي في كتابه "الشابي وجبران" في الشابي فصلاً عنوانه **"الشابي وجبران"** (ص٤٩ - ٦٦) أراد أن يصحح فيه الوهم الذي علق ببعض الأذهان فصوَّر لها أنَّ أثر جبران في الشابي لم يتعدَّ حدود التشابه في الصياغة وطريقة الأداء ورأى التليسي أنَّ "الدراسة الواعية لنتاج هذين الأديبين تكشف مدى الأثر العميق الذي طبع به جبرانُ الشابي" .

ونلاحظ أنَّ الحب والحرية والتمرد والطموح والثورة على الجمود والرجعية وإيثار الألم الحافز الذي يدفع الأفراد والشعوب إلى الحياة والنهوض حيٌّ في قصيدته **"النبي المجهول"** [١]

التي يقول فيها :

ليتَ لي قُـوَّةَ العَوَاصِفِ ، يَا شَعْبِـــي
فَأُلْقِـي إليـــكَ ثـــورةَ نَفْسِـــي

---

[١] ديوان ٧٢ ص ٢٤٦ .

ليتَ لي قُـوَّةَ الأَعَاصِيرِ ، إِنْ ضَجَّتْ

فَأَدْعُـــوكَ للحَيَـــاةِ بِنَبْسِـــي !

ليتَ لي قُـوَّةَ الأَعَاصِيـــرِ . . لَكِـــنْ

أَنْتَ حَـيٌّ يقْضِـي الحَيـاةَ بِـرَمْسِ

وفي قصيدة **"إلى الشعب"** [1] يقول :

أَيْنَ يَا شَعْبُ قَلْبُكَ الخَافِقُ الحسَّاس ؟

أَيْنَ الطموحُ وَالأَحْـــــــلَام ؟

أَيْنَ يَا شَعْبُ رُوحُكَ الشَّاعِرُ الفَنَّان ؟

أَيْنَ الخيالُ وَالإِلْهَـــــــــام ؟

أَيْنَ يَا شَعْبُ فَنُّكَ السَّاحِرُ الخَـلَّاق ؟

أَيْنَ الرُّسُومُ وَالأَنْغَـــــــام ؟

ففي هاتين القصيدتين ملامحٌ لأثر أدب جبران في أدب الشابي ، وغيرهما كثير ولكننا لسنا بصدد إحصائها .

---

[1] ديوان ٧٢ ص ٤٢٦ .